المحاضرة التاسعة المناظرات الأدبية والعلمية في العصر العباسي

مدخل:

حفلت بغداد في العصر العباسي بالمجالس العلمية والمناظرات في المساجد ومجالس العلم وبلاط الخلفاء، وقد اشتهرت بعض هذه المجالس حتى صارت مضرب الأمثال مثل المسألة الزنبورية التي جرت بحضرة الرشيد أو يحيى بن خالد البرمكي، على اختلاف رواياتها، أو بين سيبويه والكسائي، ورؤي أن هذه المسألة كانت سبب موت سيبويه من الغم. أو ما جرى بين ثعلب والمبرد من الخلاف الذي أذكى ناره انتماؤهما لمدرستين مختلفتين في النحو، فقد كان ثعلب كوفياً والمبرد بصريا.

وقد استطاع مجتمع أهل العلم ببغداد من خلال هذه المناظرات الارتقاء بالعلوم الدينية واللغوية والأدبية ، ولم يكن ينبري لها إلا أهل التمكُّن في العلم. ولم يكن للضعيف مجال في هذه المجالس. وقد اهتم نفرّ من العلماء بجمع هذه المجالس مثل كتاب "مجالس العلماء" للزجاجي.

المناظرة في المعاجم اللغوية:

1- **المُناظرة لغةً**:

و"النظر" تقليب البصيرة بعد الفحص"، ومنه : نظر إلى الشيء : أبصره وتأمّله بعينه ، ونظر فيه : تدبَّر وفكَّر ، ونظر بين الناس : حكمَ وفصلَ ، ويُقالُ : داري تنظر داره : تُقابلها ، وناظر فلاناً: صار نظيراً له ، وناظره : باحثَه وباراهُ في المحاجّة . والمُناظرُ : المُجادلُ المحاجُّ.

2- المناظرة اصطلاحاً

النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب.

وعلى هذا الأساس فإن المناظرة يحتاج المتناظر فيها إلى إعمال نظره بدقة فيما يعرض له أو يتناوله فكل يطمع في أن ينتصر على صاحبه لما في النفوس من حُبّ الغلبة.

وحتى تكون المناظرة مجدية مع توافر عنصر الإمتاع، فإنه يفترض أن يكون المتناظرون على مستويات متقاربة من الفهم والإدراك، ولا نقول بالمطابقة، لأنها نادرة الحدوث، ولكنَّ التقارب في المستوى العقلي والعلمي يجعل من المناظرة عملاً فكريا له قيمته، ويفترض في المناظر أن يكون على مستوى علمي وثقافي جيد بحيث يكون في مقدوره الصمود أمام من يناظر، ذلك لأن المناظرات طرح لمسائل فكرية عديدة كما أنها تقوم بتصحيح كثير من المفاهيم، وشق طرق جديدة أمام التفكير.

3- المناظرة في القرآن الكريم:

وقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد الحوار أو المخاطبة بين طرفين، قال تعالى:

" قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً " سورة الكهف، الآية37. وهو حوار قائم بين المؤمن والكافر.

وقد ورد لفظ المجادلة والمحاورة في آية واحدة، قال تعالى:

" قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ " سورة المجادلة، الآية1.

كان طبيعيًا أن تزدهر هذه المناظرات مع ازدهار الحضارة ونضج الثقافة وشدة التنافس بين العلماء والأدباء، فأخذ النقد يتطور في كل هذه الجدية في عرض المسائل اللغوية والأدبية،ومما زاد شيوع المناظرات أن الحكام كانوا ذوي ثقافة واطلاع.

على هذا الأساس، يحتاج المُنَاظِرُ إعمال نظره بدقةٍ فيما يعرض له أو يتناوله؛ فكلٌّ يطمعُ في أن ينتصر على صاحبه، لما في النفوس من حب الغلبة. وحتى تكون المناظرة مجديةً مع توفر عنصر الإمتاع؛ يفترض أن يكون المتناظرون على مستوياتٍ متقاربةٍ من الفهم والإدراك، ولا نقول المطابقة، لأنها نادرة الحدوث. ولذلك، قالت العرب "وافق شنٌّ طبقة"، لأنه أمرٌ نادر التوافق، لكن المراد هو التقارب في المستوى العقلي والعملي، ما يجعل المناظرة عملًا فكريًا له قيمته. كذلك يفترض في المتناظرين أن يكونوا على مستوى علمي وثقافي جيد، بحيث يصبح، في مقدورهم، الصمود أمام الخصوم في ساحة المناظرة؛ ذلك أن المناظرة طرحٌ فكريٌ يتطلب المجهود الذهني الكبير، لتصحيح المفاهيم المغلوطة، وشق طريق جديد أمام الجمهور، إذا كانت المناظرة مفتوحةً أو أمام المحكمين في حال وجودهم.

سادت المناظرات في العصر العباسي، وحظيت باهتمامٍ بالغٍ على عادة العرب التي اقتضت بأنّ لكلِ جديدٍ لذة، وقد تطوّر فن المناظرات عن فنونٍ نثريةٍ أخرى، عُرفت، منذ العصر الجاهلي، كالمنافرات والمفاخرات والمباهلات. وقد كانت المناظرات في مجلس أبي العباس السفاح تأخذ شكل المفاخرات، أما مجالس من بعده من بني العباس، مثل أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والأمين والمأمون والهادي والمهدي، فقد غلبت عليها المحاورات؛ إذ كان يجتمع صفوة رجالات الفكر والعلم والأدب والفن في هذه المجالس، فيتحاورون ويتذاكرون في المجالات الفكرية والعلمية والأدبية والفنية.

ونظرًا إلى شيوع المناظرات في هذا العصر؛ فقد تعدّدت موضوعاتها، فمنها الفلسفية والنقدية والأدبية واللغوية، وقد استعمل المتناظرون طرائق عدّة في محاولةٍ للتغلّب على الخصوم، وفن

المناظرات من أساليب التعلّم كذلك، ويمكننا أن نُجْمِلَ الطرائق التي استثمرها المتناظرون في العصر العباسي على النحو التالي:

1- طريقة المحاجة (التبكيت):

مأخوذة من المحجة أي الطريق الواضحة وتقوم على مقارعة الحجة بالحجة، وذكر الأدلة والبراهين التي تؤيد وجهة نظر المتحدث. يكثر في المحاجة استعمال البراهين العقلية والدلائل والقياسات المنطقية، وقد شاعت هذه الطريقة في المناظرات الفقهية واللغوية.

2- طريقة الإلزام:

وتقوم على البراعة في الرد، إذ يعمدُ المتحدث الأول إلى توجيه أسئلةٍ تهدف إلى إلزام الخصم بسلوكِ دربٍ يصب في مصلحة السائل، وهذه الطريقة التي انتهجها الفلاسفة والمتكلمون؛ لأنها تؤدي إلى النتيجة المرجوة من أيسر السبل.

3- طريقة التحسين والتقبيح:

ويعمد مستخدمو هذه المنهجية إلى الموازنة بين شيئين، أحدهما حسن والآخر قبيح؛ فيذكرون الأمر الحسن وسلبياته، مع ذكر إيجابيات القبيح ومحاسنه، حتى يصلوا بذلك إلى تفضيل القبيح على الحسن. ولا تعتمد هذه الطريقة على المنطق الصحيح، بل تقوم على ساق المغالطة، وقد شاعت بين الأدباء، فظهرت رسائل في تفضيل الكذب على الصدق، وتفضيل النسيان على التذكّر، وتفضيل الغباء على الذكاء، ومن أشهر من كتبوا في ذلك خلال العصر العباسي سهلُ بن هارون، والذي كتب رسالته الشهيرة إلى بني عمومته، ينتصر فيها للبخل من الكرم، كما كتب في تفضيل الزجاج على الذهب.

ألهمت المناظرات بعض الكتّاب، فألفوا مناظراتٍ خيالية، كمناظرات الجاحظ "بين الكتاب والصديق"، والربيع والخريف، والديك والكلب، وغيرها الكثير.

عرفت مجالس الأدب بدءًا من العصر الأموي، وإذا رجعت إلى كتب الأدب تجد هذا الفيض من المناظرات في مجالس المهدي والرشيد والمأمون وسيف الدولة وابن العميد وغيرهم، وبرز فيها علماء كالأصمعي والكسائي وسيبويه والجاحظ وغيرهم.

وكان أصلُ المناظرات في الأصل دينياً فقد كان خصوم العقيدة الإسلامية يحاولون النيل من المسلمين بإثارة الجدل في بعض القضايا فهبَّ علماء المسلمين للذود عن العقيدة. ومن المعلوم في تاريخ الفكر الإسلامي أن المعتزلة أعطوا للعقل نصيباً وافراً بين الأمور، يعتمد الحجة المنطقية في الرد، ويقدمون القياس للوصول إلى النتائج، فشهد العصر العباسي نشاطهم الملموس في مضمار البحث والمناظرة ومنذ أن عُرفوا كانوا "يحاورون أصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضاً في غوامض الفلسفة محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط، وكثيراً ما ردُّوا على فلاسفة اليونان، واشتقوا لهم آراء جديدة، يدعمها العقل الذي شُغفوا به وبأدِلّته وبراهينه".

أولا المناظرات الأدبية:

الشعر موهبة وصناعة، والموهوب شعراً مطبوع على قول الشعر، والذي ليس بمطبوع على الشعر لا يستطيع أن يكون شاعراً، وكم من مدعٍ طرق باب الشعر من غير معرفة فلم يصنع شيئا فترك باب الشعر عجزاً ، ومثال هذا ما روي عن ابن الأعرابي، فقد قال: "قيل للمفضل الضبي وأنا حاضر في مجلسه: لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به؟

قال: علمي به يمنعني من قوله".

فالطبع الأدبي شيء والعلم بالشعر شيء آخر، وليس معنى ذلك أن الذي لا يكون مطبوعاً على الشعر لا يكون شاعراً، وإنما يغلب عليه التكلف، فتقلُّ مزية الأصالة عنده. وقد عرفت العرب مزية الطبع وفضله، فهو عندهم "ترك التكلف يقول الجرجاني:

" ومِلاكُ الأمر في هذا الباب خاصة تركُ التكلّف ورفض التعّمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به، ويسترسل الجرجاني فيقول: ولست أعنى بهذا كلَّ طبع، بل المهذب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجمَّلته الفطنة، وأُلهمَ الفصل بين الرديء والجيّد، وتصوُّر أمثلة الحسن والقبح".

وفي المناظرة الآتية بيان لأهمية الطبع عند الشاعر، يقول صاحب الأغاني: "حُمّ الرشيد، فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة منها:

لوعلمَ الناسُ كيفَ أنتَ لهمْ... ماتوا إذا ما أُلِمت أجمعُهمْ

خليفةَ الله أنت تَرجحُ بالنــا... س إذا ما وُزنتَ أنتَ وهمْ

قد علمَ الناسُ أنَّ وجهَكَ يَسـ ... تغنى إذا ما رآهُ مُعدَمُهمْ

فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد، فأمر بإحضار أبي العتاهية، فما زال يسامره ويحدثه إلى أن برئ ووصل إليه من ذلك مالٌ جليل".

ثانيا المناظرات العلمية :

من المعلوم في تاريخ الفكر الإسلامي أن المعتزلة أعطوا للعقل نصيباً وافراً بين الأمور، يعتمد الحجة المنطقية في الرد، ويقدمون القياس للوصول إلى النتائج، فشهد العصر العباسي نشاطهم الملموس في مضمار البحث والمناظرة ومنذ أن عُرفوا كانوا "يحاورون أصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضاً في غوامض الفلسفة محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط، وكثيراً ما ردُّوا على فلاسفة اليونان، واشتقوا لهم آراء جديدة، يدعمها العقل الذي شُغفوا به وبأدِلّته وبراهينه".

فكثرت مسائل العلم وقضاياه، وتطلب ذلك أن يكون للاجتهاد مكانته في نشاط العلماء، وكل مجتهد يحاول أن يظهر رأيه ويدافع عنه، ويثبت نفسه في ميدان العلم أخذاً ورداً، فاستعَّرتْ نارُ المناظرات بين الفرق المختلفة، وأصبحت أسُس الحوار صلبة تحتمل ما يلقى عليها علاوة على ما سبق أن ذكرنا فقد احتدم الجدال بين الفقهاء في اجتهادهم ومدى أخذهم بالقياس، فكان الفقهاء يناقشون، وكان المتكلمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون.

ومن الثابت إذن أنَّ المعتزلة برعوا في المنطق والقياس ولكن براعتهم لم تقتصر على هذا الجانب العقلي وحسب، ولكنهم جمعوا إليه تفنُّنهم في انتقاء الأساليب اللغوية الأدبية، فقد ثبت أنهم أهل فصاحة، عرفوا اللغة وعرفوا كثيراً من دقائقها وأسرارها، وليس هذا بمستغربٍ عليهم وهم الذين يهدفون إلى التأثير في السامع بالحجة البالغة فكراً ولغة، ولذلك فقد وجَّهوا عنايتهم إلى البيان والأسلوب، وكانوا بطبيعة تفكيرهم أقدر الناس على تفهم دقائقها؛ لما توافر لهم من الفصاحة والبيان، والدأب على جمع الأدب ونثره للحجاج الديني، ولتربية ملكة للتعبير عما

يدعون إليه. وللثقافة شأنها في تربية الناقد والأديب. وحتى ندلل على براعة المعتزلة وفصاحتهم نورد نموذجا من مناظراتهم العلمية:

"حُكى أن النظَّام جاء به أبوه وهو حدث إلى الخليل بن أحمد ليعلمه، فقال له الخليل يوماً يمتحنه وفي يده قدح زجاج: يا بني صف لي هذه الزجاجة، فقال: أبمدح أم بذم؟ قال: بمدح، قال: نعم ، تُريك القذى ، ولا تقبلُ الأذى، ولا تَسترُ ما وراءها، قال: فذُمَّها، فقال: سريع كسرها، بطئ جبرها، قال: فصف هذه النخلة، وأومأ إلى نخلة في داره، فقال: أبمدح أم بذم؟ قال: بمدح، قال: هي حلو مجتناها، باسق منتهاها، فاخر أعلاها، قال: فذُمَّها، قال: هي صعبة المرتقى، بعيدة المجتنَى، محفوفة بالأذى، فقال الخليل: نحن إلى التعلم منك أحوج.

الخاتمة:

1/ امتاز العصر العباسي بالصراع الفكري الذي وقع في أوساط الفرق الإسلامية المختلفة، وبين العلماء والأدباء على اختلافِ مشاربِهم، وقد كانت كل قضية فكرية تثير عددًا من المعارك الكلامية التي يُتخذ لها ميدانًا في الكتب أو الرسائل أو المناظرات بين العلماء.

2/ كان للمناظرات الأدبية دورٌ كبير في ارتقاء العلوم والآداب أذكت من روح المنافسة والحرص على التجويد.

3/ يعود الفضل في شيوع المناظرات وازدهارها إلى المتكلمين وخاصة المعتزلة، حيث اتخذوا الجدل والمناظرة وسيلة اعتمدوا عليها في مباحثهم ونشر مبادئهم.

4/ كان للجدل الفقهي أيضاً دورٌ في الارتقاء بفن المناظرات لاختلاف المذاهب الفقهية فـي بعض الفروع وكان للعصبية للشعراء وتعصب النقاد لهذا الشاعر أو ذاك إذكاءٌ لروح الجدل والمناظرة.

5/ اختلفت موازين النقاد في الحكم على الأشعار تبعاً لأذواقهم أو ثقافتهم واختلاف موازين النقد مما أغنى المناظرات الأدبية.

6/ تأثر بعض الكتاب في العصر العباسي بالمناظرات الأدبية فألَّفوا مناظرات خيالية كالمناظرة بين الديك والكلب عند الجاحظ وغيرها من المناظرات .

للاستزادة أكثر ينظر:

1-عبد اللطيف سلامي: المدخل إلى فن المناظرة

2- لينا عبد ربه خورشيد:المناظرات الأدبية في العصر العباسي الأول والثاني في المشرق العربي دراسة تحليلية فنية.

3- أبو القاسم الزَّجّاجي: مجالس العلماء

4- أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني:محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء.

5-الطيب زايـد رابـح والمهدي مأمون أبشر المناظرات الأدبية في العصر العباسي:مقال من مجلة جامعة بخت الرضا العلمية، جامعة الخرطـــــوم،العدد الثاني عشر سبتمبر 2014م .

6- عبد الرحيم الحسناوي: المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية.